الفصل الثانى والثلاثون

العرب فى أفريقيا

١٦٩ — ٥٦٧ هـ ؛ ٧٨٥ — ١١٧١ م

دولة الأدارسة — الأغالبة — غزو صقلية — احتلالها — سقوط دولة الأغالبة — الفاطميون — احتلال مصر — تأسيس القاهرة — احتلال الشام والحجاز واليمن — تدهور الدولة الفاطمية — انقراضها — محفل الإسماعيلية الأكبر

كانت الممتلكات الأفريقية إلى عهد المهدى ثالث الخلفاء العباسيين تعترف بسيادة الخلافة العباسية . وفى عهد الهادى فر « إدريس[1] » حفيد الحسن الأول إلى المغرب ، وهنالك بمساعدة قبائل البربر الذين استجابوا له أسس مملكة قوية الدعائم ، ازدهرت حينا من الزمن فى أفريقية الشمالية ، كما ابتنى مدينة فاس وجعلها عاصمة ملكه ، فأصبحت مركزا مهماً للعلم والثقافة . ويقال إن الخليفة العباسى أرسل من[2] دس له السم ؛ فخلفه ابنه الطفل إدريس تحت وصاية أمه والوزير غالب ، وقد برهن إدريس على أنه بطل شجاع قام بعدة حروب فى الجنوب ، ويقول ابن خلدون : « إن الدولة العباسية كانت قد امتدت فى المغرب الأقصى من سوس إلى شلف » . ولما توفى فى سنة ٢١٣ هـ اعتلى ابنه محمد كرسى الخلافة ، ويلوح أن السياسة التى اتبعها فى إسناد مناصب الولاة إلى أفراد أسرته نجحت نجاحا باهراً ، إذ ظل جميع إخوانه — إذا استثنينا واحداً منهم — موالين له إلى النهاية .

وفاة إدريس الثانى سنة ٢١٣ هـ

ولما توفى محمد سنة ٢٢١ هـ خلفه ابنه على وكان عمره تسع سنوات ، فبايعه

وفاة محمد

---

(١) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . (المعرب)

(٢) إدريس الشماخ اليمامى مولى المهدى . (المعرب)

الجميع وأخلص له كبار الدولة ، وقد علق أحد المؤرخين المعاصرين على ذلك ، بقوله : « إن فى عهده حسنت حال الرعية » . وتوفى وله من العمر ٢٢ سنة دون أن يعقب ولدا ، فاعتلى أخوه « يحيى بن محمود » العرش . وفى خلال عهده الطويل انتشر سلطانه فى سائر أنحاء البلاد ، وتقدمت المملكة تقدما باهرا فى الثروة والرخاء ، وجعلت مدينة فاس التى تدفق عليها الناس من جميع الأنحاء .

وفاة يحيى

وفى سنة ٢٦٤ هـ توفى يحيى وخلفه ابنه المسمى بهذا الاسم ، وأدى ظلمه إلى نشوب اضطرابات انتهت باقصائه عن الحكم ، ففر إلى الأندلس حيث لاقى حتفه . ولما عزل يحيى الثانى استولى على الملك من بعده ابن عمه « على بن عمر » الذى لم يبق فى الحكم مدة طويلة ، إذ اضطرته ثورة الخوارج على الفرار إلى الأندلس ، وعندئذ بايع أهل فاس يحيى حفيد إدريس الثانى بالخلافة ، وكان عالماً فقيهاً ملماً بالحديث فنجح مدى حين فى نشر سلطانه على الدولة الإدريسية القديمة ، غير أن حكمه انتهى بسرعة سنة ٣٠٩ هـ ، حيث طرده حاكم مكناسة الفاطمى فى السنة عينها ، فاعتزل الاشتغال بالمسائل العامة وعاش فى المهدية حتى توفى سنة ٣٣١ هـ . وبعزله انقرضت الخلافة الإدريسية فأدعى عمال الولايات البعيدة بالإمارة . وفى سنة ٣١٩ هـ أرسل عبد الرحمن الثالث حملة عسكرية على رأسها الناصر إلى أفريقية ، فاستولى على المغرب الأقصى ونفى معظم أمراء الأدارسة إلى قرطبة ، وهكذا سقطت مراكش الغربية فى أيدى خلفاء الأندلس بينما اعترف القسم الشرقى منها بسلطان الفاطميين .

بنو الأغلب

لا مشاحة أن مؤسس هذه الدولة هو « إبراهيم بن الأغلب » المشهور بحسن الإدارة وواسع الذكاء ؛ وقد ابتنى فى ضواحى القيروان مدينة جديدة سماها بالعباسية وجعلها قاعدة لملكه ، وبلغت مدة حكمه اثنى عشرة سنة ؛ ولما توفى ولى بعده ابنه عبد الله ، فاستقامت له الأمور ، وتمتع الناس فى ظله بنعمة الطمأنينة

والعدل[1]؛ وتوفى سنة ٢٠١ هـ فخلفه أخوه زيادة الله ، وكان طموح النفس حازما شجاعا محباً للعلم مكرما للعلماء ، ولكنه كان متكبراً مهملا لأمور الرعية فخرجوا عليه ، ولكنه بعد قتال عنيف مزق شملهم ووطد الأمن ثانية فى ربوع البلاد .

الاستيلاء على صقلية

لقد ظل فى قبضة العرب منذ عهد طويل قسم من جنوب صقلية ، ولم يبدأوا فى الواقع بإخضاع الجزيرة برمتها إلا فى عهد الأغالبة ، ففى سنة ٢١١ هـ أرسل (زيادة الله) جيشاً إلى صقلية على رأسه أسد[2] بن الفرات قاضى القيروان . وقد اختلفت الروايات المسلمة والنصرانية فى سبب هذا الغزو ، ففى الرواية النصرانية : « أن شابا بيزنطيا اسمه يوفيليوس غرر بإحدى الراهبات وأخرجها من الدير ، فحكم عليه الإمبراطور بقطع لسانه ، وفى الحال التجأ إلى المسلمين فى أفريقية وحرضهم على غزو الجزيرة » . ولكن ابن الأثير لم يذكر شيئاً عن الراهبة بل قال : « إن سبب إرسال الجيش هو أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين عام ٢١١ هـ ، فلما وصل إليها عين روميا اسمه فيمى قائداً على الأسطول ، وقد كان حازما شجاعا فغزا أفريقية وأعمل فيها يد النهب والتخريب ؛ ولكن ملك الروم لم يلبث أن كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمى وتعذيبه ، فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامعه شق عصا الطاعة ، وفى الحال سار إليه قسطنطين واقتتل الفريقان حتى حلت الهزيمة بقسطنطين الذى لم يلبث أن فر إلى مدينة قطانية ، وعندئذ زحف عليه فيمى بجيش كبير طفق يقاتله حتى قبض عليه وفتك به ، ثم نادى بنفسه ملكا على تلك الجزيرة ، كما استعمل على أحد أقسامها رجلا اسمه بلاطه لم يلبث هو الآخر أن شق عصا الطاعة مع ابن عم له اسمه ميخائيل حاكم مدينة بلرم ، فجمع الاثنان جيشاً لجباً وقاتلا فيمى وألحقا به هزيمة منكرة ، واستولى بلاطة على مدينة

---

(١) ابن الأثير .

(٢) وهو مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك . (المعرب)

سرقوسة ؛ ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى أرسل فيمى إلى الأمير زيادة الله يستنجده و يعده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشاً فى ربيع الأول عام ٢١٢ هـ فوصلا إلى مدينة « مازر » حيث تقابلا مع جمع حاشد من الروم ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الروم واستيلاء المسلمين على أموالهم ودوابهم » ، وعندئذ هرب بلاطة إلى قلورية حيث قتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة وحاصروا سرقوسة ، غير أن وباء شديداً انتشر فى معسكر المسلمين فهلك به كثير منهم ، ومن جملتهم « أسد بن الفرات » الذى ولى مكانه محمد بن أبى الجوارى . وعند ما رأى المسلمون استفحال الوباء وانتصار الروم ، قصدوا تواً إلى مدينة « ميناو » واستولوا عليها عنوة ، فقويت بذلك شوكتهم ، ثم ساروا إلى مدينة « قصريانة » ومعهم « فيمى » الذى فتك به سكانها . ولكن « محمداً بن أبى الجوارى » لم يلبث أن توفى وولى مكانه زهير بن غوث . وتقول لنا الرواية : إن الروم حاولوا يومئذ أن يطردوا المسلمين من الجزيرة فحاصروهم فى ميناو ، وما إن وصلت قوات جديدة إلى المحصورين من الأندلس وأفريقية حتى انسحب الروم إلى سرقوسة ، وزحف المسلمون فى رجب سنة ٢١٦ على بلرم واستولوا عليها عنوة . و يعد فى الواقع الاستيلاء على تلك المدينة بدء احتلال الجزيرة ، ومع أن قسما كبيراً منها أذعن بالتسليم للقائد العربى ، إلا أن الإدارة المنظمة لم تؤسس فيها إلا بعد أن وصل إليها حاكمها الجديد «أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله » من أسرة زيادة الله الذى فى عهده تم الاستيلاء على المناطق المجاورة لجبل أتنه (جبل النار) .

وفى عام ٢٢٣ هـ توفى زيادة الله وولى مكانه أخوه أبو عنان الأغلب ، وكان عهده عهد رخاء ، « فأحسن إلى الجند وأزال مظالم كثيرة ، وزاد العمال فى أرزاقهم » ، كما سير فرقة إلى صقلية واستولى على عدة معاقل على ساحل كلابريان فى جنوبى إيطاليا .

وفاة الأغلب سنة ٢٢٦ هـ

وفى سنة ٢٢٦ هـ توفى الأغلب بعد أن حكم البلاد سنتين وسبعة أشهر ، وولى بعده ابنه أبو العباس محمد ، وكان إداريا حازما مولعاً بالعمارة . وفى سنة ٢٢٨ هـ سار الفضل بن جعفر الهمدانى حاكم صقلية ، فنزل « مسينى » وبث السرايا وقاتل سنتين ، ولكنه لم ينجح فى فتحها لاعتماد أهلها على المساعدات التى كانت تردهم من نابولى ، ولكنهم سلموا أخيراً بشروط سخية . وفى سنة ٢٣٢ هـ استولى الفضل على مدينة لنتينى ، وتغلغل بجيشه فى الأرض الكبرى مكتسحا كلابريا وكامبانيا ، و بلغ عدد المدن التى فتحت عنوة أو قدمت طاعتها ١٥٠ مدينة ؛ وفى تلك الأثناء دخل أسطول العرب نهر التيبر وعاث تخريباً فى فاندى وضواحى روما ، وحاصر «غيطة» ، غير أن انقسام العرب وانشقاقهم حال دون استيلائهم عليها . وفى سنة ٢٣٣ هـ نزلوا مدينة « تارنتو » ، وفى سنة ٢٣٤ أخضعوا مدينة « راغوس » ، كما زحفوا فى سنة ٢٣٥ على روما ثانية فثارت زوبعة شديدة تغلبت على مهارة البحارة الأبطال وأنقذت مدينة البابا من أيدى العرب الذين تحطم أسطولهم على شواطئ الجزر والصخور الناتئة . وفى رجب سنة ٢٣٦ توفى أمير صقلية فى « بلرم » فولى الناس عليهم العباس بن الفضل وكتبوا إلى أمير أفريقية بذلك ، فلما قدم العهد إلى الوالى الجديد واصل غزوه بنشاط وحزم عظيمين ، فأخضع فى سنتى ٢٣٩ و ٢٤٠ هـ « قطانية » و « قلعة أبى ثور » وعدة مدن أخرى .

وفى سنة ٢٤٧ توفى «العباس» أمير صقلية فنادى السكان بابنه «عبد الله» حاكما عليهم وكتبوا بذلك إلى أمير أفريقية فأقره على الولاية ، ولكنه لم يلبث أن ولى مكانه خفاجه بن سفيان . وفى سنة ٢٥٠ هـ فتح العرب مدينة «نوطس» كما أخضعوا بعد بضع سنين « سرقوسة » التى قاومت ردحاً من الزمن ، كذلك استولوا على أبا ، وساتاس ، وقصر الجديد ؛ وفى سنة ٢٥٤ هـ حاصر «محمد بن خفاجه » مدينة غيطة وأخضع ضواحى مدينة روما . وفى سنة ٢٥٥ هـ توفى

خفاجه[1] وخلفه ابنه محمد فسير أسطولا إلى مالطة بقيادة أحمد بن عمر ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى قصره فى ثلاثة من رجب سنة ٢٥٧ . ولأجل أن يستكمل البحث عن احتلال المسلمين لجزيرة صقلية يجب أن نلم بشىء عن الحوادث التى وقعت فى إمارة أفريقية منذ سنة ٢٤٨ هـ حيث توفى محمد وولى بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد الذى حكم البلاد حكما مرضياً ، وقد كان عادلا عاقلا حسن السيرة حازماً ؛ ويقال إنه شيد عشرة آلاف حصن بالحجارة والآجر لصد غزوات الأعداء . وفى سنة ٢٤٩ هـ توفى « أبو إبراهيم أحمد » وتولى بعده « أبو محمد زيادة الله » وجرى على سنن سلفه ولم تطل أيامه فتوفى ، وكانت مدة ولايته أكثر من سنة ونصف سنة[2] ؛ وولى بعده أخوه عبد الله ويقول فيه ابن الأثير : « إنه كان أديباً عاقلا عادلا حسن السيرة » ، وفى عهده تغلب الروم على مواضع من صقلية ، فشيد بها « محمد » كثيراً من الحصون والمعاقل ، ويقال إنه استولى على أرض تعرف بالأرض الكبيرة ، وتوفى أبو عبد الله محمد سنة ٢٦١ هـ وتولى بعده أخوه إبراهيم .

وقد عرف فى مستهل حكمه بالعدل والإحسان ، غير أنه أصيب أخيراً بمرض سفك الدماء فذبح أبناءه الأحد عشر مما أثار سخط الخليفة « المعتضد » عليه فعزله فى الحال وولى مكانه ابنه « أبا العباس عبد الله » الذى كان يحارب وقتئذ فى صقلية ، فعبر إبراهيم على أثر عزله إلى تلك الجزيرة واشترك فى محاربة الروم حتى وافته منيته بعد أمد قصير .

وقد كان « أبو العباس عبد الله » طيب القلب عادلا شجاعاً ذا مقدرة وكفاية فى إدارة شؤون الدولة ؛ ولكن ابنه « مضر » أغرى به من اغتاله

---

(١) يقول ابن الأثير ص ٤١ ج ٧ : « اغتاله رجل من عسكره إذ طعنه طعنة فقتله وهرب إلى سرقوسة » . (المعرب)

(٢) يقول ابن الأثير ص ٢١٣ ج ٦ : « كانت ولايته سنة واحدة وستة أيام » . (المعرب)

وبموته انتهى حكم تلك الأسرة على أفريقية . وتقول لنا الرواية العربية إن مضراً بعد أن حرض عبيده على الفتك بأبيه استسلم لضروب اللهو والاستمتاع فتردت البلاد على عهده فى مهاوى الدمار والخراب ، كما نشبت ثورة فى أفريقية الشمالية كان لها أكبر الأثر فى تغيير مجرى الحوادث التى وقعت فيما بعد فى تلك البلاد .

قيام الدولة الفاطمية

أتينا فيما تقدم على وصف الانشقاق الذى حصل بين الشيعة على أثر وفاة الإمام جعفر ، وقبول الأغلبية إمامة موسى الكاظم الذى كان قد أوصى به أبوه على أثر وفاة إسمعيل أكبر أبنائه ، فى حين كان البعض الآخر يتمسك بإمامة « محمد بن إسمعيل » الملقب بالمكتوم ، وقد أدخل الإسماعيليون على مذهبهم كثيراً من الآراء السرية التى أخذوها عن الفلسفة المانية ، وكانوا يرون أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا ، وكانوا يختلفون عن المسلمين فى اعتقاداتهم إذ يعتبرون العبرة بالإيمان وليس بالأعمال ، فسميت هذه الفئة المتطرفة من الإسماعيلية بالباطنية[1] ، وأثارت تعاليمهم السرية شكوك الخلفاء العباسيين فبثوا حولهم الأرصاد والعيون ونكلوا بهم شر تنكيل .

جعفر الصادق

ولما توفى محمد المكتوم خلفه فى الإمامة الإسماعيلية ابنه « جعفر الصادق » ، الذى بعد أن توفى خلفه ابنه محمد الملقب « بالحبيب » ، وكان رجلا عالى الهمة كبير الآمال والأطماع ذا مقدرة وكفاية وفيه شبه بالسفاح والمنصور ، وكان يقيم فى البلدة المعروفة « بالسلمية » من أرض « حمص » ، حيث كان دعاته فى كافة الأمصار يكاتبونه سرا ويبثرون بالآراء الإسماعيلية ، فانتشرت مبادئ تلك الجماعة بسرعة عجيبة فى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وأفريقية الشمالية ، وكان من أخلص دعاته وأكثرهم حماساً أبو عبد الله الحسينى الذى كان محتسب البصرة من قبل وعرف فيما بعد « بالشيعى » .

---

(١) قد تفرع من الباطنية قسمان : القرامطة والحشاشون ، ويسمى العرب القسم الثانى بالباطنية .

وفى سنة ٢٨٨ هـ توجه « أبو عبد الله » إلى أفريقية فقوى نفوذه بين البربر السريعى التأثر بخطبه العجيبة ، وشدة شكيمته وقوة إرادته فوق تقواه وتقشفه ، فانحازت إليه قبيلة كتامة القوية . وفى ذلك العهد كان يحكم أفريقية إبراهيم بن محمد فحاول قمع الحركة الإسماعيلية ، ولكنه فشل إزاء نشاط أبى عبد الله ، كما أن تولية « زيادة الله » الضعيف مهدت السبيل لنشر الدعوة . وفيما كان الحاكم الأغلبى « غارقا فى ملذاته كان نفوذ « أبى عبد الله » يقوى و يشتد فى البلاد ، كما كان دعاته يبشرون بقرب ظهور المهدى » ، وما هى إلا برهة حتى سيّر « زيادة الله » جيشين على أتباع « الشيعى » فالتقى الفريقان ، و بعد قتال شديد انهزم أصحاب « زيادة الله » الذى فر إلى طرابلس ومنها إلى آسيا[1] ، وكانت للسياسة الرشيدة التى أتبعها « عبد الله » أكبر الأثر فى استمالة العامة وتهيئتهم لاستقبال الإمام صاحب الدعوة .

عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى توفى « محمد الحبيب » ، وعند ما بايع ابنه « عبيد الله » خاطبه قائلا : « أنت المهدى المنتظر ، وستهاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقى محنا شديدة » ، ولكن عبيد الله ظل برغم ذلك يعيش حياة هادئة فى بلدة « السلمية » حتى ضمن الشيعى مؤازرة قبيلة كتامة ، و بعث بالرسل إلى المهدى ليخبروه بما فتح الله عليه و بأنهم ينتظرونه ، فخرج عبيد الله فى الحال مع ابنه أبى القاسم وأبى العباس (أخى الشيعى) و بعض خاصته ومواليه متنكرين بزى التجار ، و بالرغم مما أحاط عبد الله به سفره من التكتم الشديد ، فقد تسرب الخبر إلى الخليفة العباسى الذى لم يلبث أن كتب إلى عماله بأوصافه وأمرهم بالقبض عليه وعلى كل من يشتبه فيهم ، وفى طرابلس ترك « أبو العباس » المهدى وتوجه إلى القيروان حيث اكتشف أمره فقبض عليه وزج فى السجن ، غير أن عبيد الله وابنه تمكنا من الفرار ووصلا سالمين سنة ٢٩٦ هـ إلى «سجلماسة»

(١) يقول ابن عساكر إنه توفى فى الرقة سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ — ٩٠٩م) .

وهى مدينة على سفح جبل الأطلس ، وكانت عندئذ عاصمة بنى مدرار ، وهنالك تخلى عنهما الحظ ، إذ أن « اليسع » أمير سجلماسة بعد أن كان قد أحسن استقبالهما اعتقلهما على أثر وصول كتاب من « زيادة الله » ، فجهز « الشيعى » جيشاً كبيراً وزحف به على القيروان فأنقذ أخاه « أبا العباس » ، ثم أسرع إلى مقابلة اليسع[1] ، وبعد أن قتله أسرع إلى المكان الذى فيه عبد الله هو وولده ، ثم أركبهما ومشى مع رؤساء قبيلة كتامة ، وطفق يبكى من شدة الفرح ويقول للناس : « هـذا مولاكم ! » حتى وصل إلى الفسطاط المعد لهما ، وبعد أن مكثوا أربعين يوما

المهدى

« بسجلماسة » ساروا إلى « رقادة »[2] حيث بايعه أهل القيروان بالخلافة ، وانتشرت سيادته فى أفريقية ، واعترف به جميع أهلها باستثناء نفر قليل منهم ، واستعمل العمال على الولايات ومن جملتها صقلية ؛ فلما باشر الأمور بنفسه واستقامت له البلاد داخل أبا العباس الحسد بعد أن كان قد منى نفسه بأن يكون هو صاحب الأمر والنهى ، فسخط لفقده السلطة وأخذ يتآمر مع بعض رؤساء قبيلة « كتامة » على خلع الخليفة الفاطمى ، ولم يزل بأخيه « عبد الله » الخادم الأمين حتى استمالة إليه فحاول « المهدى » أن يصالحهما ، غير أنهما رفضا التفاهم معه رفضاً باتا ، ولما تيقن من عزمهما على اغتياله أمر بهما فقتلا عند باب القصر ؛ ومع ذلك لم يحل قتلهما دون أن يواصل الغزو ، فقد تمكن من نشر سلطته على القسم الأعظم من صحراء ليبيا حتى المغرب الأقصى . وبالرغم من سعيه فى تدعيم الأمن وكبح شكيمة البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش ، فقد ارتكبوا أروع أعمال السفك فى أثناء قمع تلك الفتنة ، مما أدى إلى إثارة فتنة أخرى دعت المهدى بعد أن استقامت له الأمور إلى أن يفكر فى إنشاء عاصمة محصنة تحصيناً قويا خشية

---

(١) يقول ابن الأثير ص ١٩ ج ٨ : إن اليسع هرب وأهله وبعد أن خرج المهدى ووصل إلى الفسطاط أمر بطلب اليسع فطلب فأدرك فضرب بالسياط ثم قتل . (المعرب)

(٢) يقول ابن خلدون إن رقادة على مسافة ثلاثة أميال من القيروان .

الخروج عليه ، فغادر تونس وأخذ يستطلع المواقع على الساحل ، وأخيراً انتخب موقعاً على لسان البحر ، وأبتنى المدينة التى سماها المهدية ، إلا أنه لم يتم بناؤها إلا بعد خمس سنوات ؛ ويقال إنه شيد حول تلك المدينة سوراً قويا وجعل له أبوابا حديدية ، و بنى بداخلها القصور ذات السراديب الفسيحة التى اختزن فيها كميات عظيمة من المؤونة ، و بعد أن أكمل تشييدها خاطب نفسه قائلا : « إنى لأشعر الآن باطمئنان عظيم على مصير الدولة الفاطمية الناشئة » ، وكان حكمه شديداً حازماً ؛ وحتى السيوطى يقول فيه : إنه نشر العدل فى الناس فمالوا إليه . وفى سنة ٣٠٩ أخضع الدولة الإدريسية ، غير أنه فشل فى غزو مصر ، ولكنه مع ذلك وجه اهتمامه شطر أسبانيا فعاجله الموت قبل تحقيق أمنيته .

وفى سنة ٣٢٢ هـ توفى « عبد الله » وكانت ولايته أربعاً وعشرين سنة ، وخلفه ابنه « أبو القاسم محمد نذار » ولقب « بالقائم بأمر الله » ، وكان جنديا باسلا تولى بنفسه قيادة الجيوش ، وكان أول خليفة فاطمى شيد أسطولا قويا استطاع به أن يستولى على زعامة البحر الأبيض المتوسط ، و بعد أن وطد دعائم ملكه فى المغرب الأقصى — ما عدا منطقة فاس — حول بصره شطر أوربا ليوقف سير الغارات التى كانت تشنها على ثغور مملكته البحارة الإيطاليون من سكان لفريان و بيزا و بعض الموانئ الأخرى ؛ فاحتل جنوبى إيطاليا حتى مدينة جائيتا ، واستولى بسفنه الحربية على جنوه التى بقيت فى قبضة العرب ردحا من الزمن ، كما أخضع جزءاً من لومباردى (الأنكابوردة) ؛ ولولا نشوب الفتن الداخلية التى استنفدت جميع مصادره وجهوده الحربية لأخضع إيطاليا برمتها . ولسوء الطالع اشتد تذمر الناس من أعمال البربر الوحشية ، وتطور غضبهم إلى فتنة هائلة فى الوقت الذى كانت أوربا قد فتحت فيه أبوابها أمامهم ، وكان على رأس الفتنة أحد الخوارج واسمه « أبو يزيد مخلد بن كيراد[1] » ، وكان مدرساً

(١) يقول ابن الأثير (ص ١٦٤ ج ٨) : إن اسم والده كنداد . (المعرب)

وخطيبا مفوها استطاع بخطبه الرنانة وتعاليمه الشيقة أن يجمع حوله عددا كبيرا من البربر من جبال أوراس ، كذلك كاتب الخليفة الأندلسى ورغبه فى الزحف على أفريقية لسحق الدعى الفاطمى . وفى سنة ٣٣٣ هـ زحف أبو يزيد — الذى أطلق عليه أتباعه اسم « شيخ المسلمين » — من الجبال فى قوة كبيرة من القبائل المتوحشة ، وأوقع بالجيش الفاطمى هزائم منكرة ، ثم استولى عنوة على مدن القيروان مرتكباً فى ذلك أروع ضروب السفك ؛ وما انقضت مدة وجيزة حتى تحققت تنبؤات المهدى ، إذ وقع القسم الأعظم من البلاد فى قبضة الفقيه الثائر وأصبح نفوذ القائم وسلطانه مقتصرا على المهدية ، وقليل من المدن المحصنة على الساحل . وقد حاول أبو يزيد أن يستولى على العاصمة ، ولكنه كان يبوء بعد كل هجوم بالفشل المريع ، وأخيرا حاصرها حصارا شديدا حتى منع عنها المدد ؛ كذلك يقال إنه زحف على « سوس » لكى يستولى عليها عنوة .

وفاة القائم

وبينما كان « أبو يزيد » يضيق الحصار على « سوس » توفى « القائم » ، وخلفه ابنه « أبو الطاهر إسماعيل » الملقب « بالمنصور بأمر الله » ، وكان شابا قوى العزم شديد البطش ، فأنزل بالقبائل المتعصبة هزائم منكرة ، ولما كان هؤلاء لا يظهرون أية رحمة نحو أعدائهم فقد عاملهم بالمثل . أما أبو يزيد فلم يلبث أن فر إلى جبل « سالات » وهو جبل وعر صخرى قائم فى الصحراء ، ويستغرق اختراقه أحد عشر يوما ، فتعقبه « المنصور » وحاصره فى قلعة كتامة ، ودارت رحى القتال بينهما ردحا من الزمن . ويقال إن أبا يزيد حاول فى خلالها أن يفلت من الحصار عدة مرات ، غير أنه وقع أسيرا فى قبضة عدوه الذى فتك به فى الحال ؛ وبالرغم من أن ابن أبى يزيد وبعض أتباعه ظلوا مدة يثيرون الفتن والقلاقل ، إلا أن أفريقية برمتها أذعنت بالتسليم للحاكم الفاطمى كما اعترفت صقلية وقلورية بسلطة العرب .

وفى سنة ٧٢٩ م ولّى المنصور الحسنَ بن على ابن أبى الحسين الكلبى على

صقلية ، وظل هذا المنصب وراثيا فى أسرته ردحا من الزمن . ويقال إنه سير عدة سفن على الفرنج الذين كانوا قد توغلوا فى تلورية ، وأنزل بهم خسائر فادحة على سواحل إيطاليا ؛ غير أن المغرب الأقصى برغم تلك الانتصارات أفلت من يد المنصور ، وذلك أن الخليفة الأموى فى الأندلس انتهز فرصة نشوب فتنة أبى يزيد وقوض حكم الأدارسة فى تلك البلاد .

وفاة المنصور

وفى سنة ٣٤١ هـ توفى المنصور فخلفه ابنه « أبو تميم معد » الملقب « بالمعز لدين الله » ويصفه المؤرخون حتى أعداء أسرته بأنه حاكم شهم عاقل عظيم الهمة ، وكان عالما ملما بالفلسفة والعلوم ، ومحبا للعلم مكرما للعلماء ، ويمكن أن نسميه بمأمون المغرب وفى عهده بلغت أفريقية الشمالية شأوا عظيما فى المدنية ، فقد حسن حال الرعية ، ورد المظالم ، وقمع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الإدارة وسن القوانين ، وقسم الولايات إلى مناطق وعهد بإدارتها إلى الأكفاء وجهزهم بالجنود والشرطة لحفظ النظام ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، وشجع التجارة والصناعة ؛ وكان فوق ذلك شهماً لبقاً إلى حد كبير ، فاكتسب صداقة الزعماء الذين كانوا من ألد أعداء أبيه وجده ، وكان يستقبلهم استقبالا حافلا ، ويعاملهم بالعطف واللطف حتى أصبحوا من أعوانه المخلصين ؛ وفى تلك الأثناء استرد قائده جوهر « بلاد المغرب الأقصى » من الخليفة الناصر الذى كان منهمكا وقتئذ فى حروبه مع الثوار المسيحيين فى شمال أسبانيا ؛ كذلك سحق « زيرى بن مناد » رئيس صنهاجة الثائرين فى منطقتى أوراس وبوغيا ، وبذلك « توطدت دعائم سلطان المعز فى أفريقية والمغرب واتسعت رقعة دولته » . وفى سنة ٣٤٤ هـ استولت السفن الأندلسية على سفينة من سفن المعز كانت مقلعة إلى المغرب ، فسخط الخليفة الفاطمى ، وفى الحال أمر عامل صقلية « الحسن بن على » أن يقلع إلى الأندلس ويدمر ساحل المرية ، ولكن الناصر لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا التصرف العدائى ، فأمر جيشه أن يزحف على سوسة ومرسية ويعمل فيهما

يد التخريب والنهب ، وهكذا أصبح الملكان المسلمان عدوين لدودين بدلا من أن يوحدا صفوفهما و يخضعا أوربا برمتها . أما العرب الذين أخرجوا من قرطبة فكانوا قد استولوا على جزيرة كريت فى عهد المأمون واستوطنوا بها ونشروا فيها معالم المدنية حتى زهت فيها العلوم والصناعات . وفى سنة ٣٥٠ هـ نزل الروم على الجزيرة لاستردادها ، وكان عدد السفن التى نقلتهم سبعمائة سفينة ، فاقتتل الفريقان ، واستبسل المسلمون ولكن دون جدوى ، فمزق الأعداء جموعهم وتغالوا فى السلب والاغتصاب ، وارتكبوا أروع ضروب السفك ؛ ويقال إنهم كانوا يلقون على الرجال سائلا من القطران ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كانوا يذبحون الأطفال والنساء على حد سواء من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ غير أن العرب استعاضوا عن ضياع أفريقية بالقضاء على سلطان الروم فى صقلية ، فزحف « أحمد ابن الحسن » حاكم الجزيرة على بقية الحصون التى كانت بأيدى الأعداء ، وأوقع بالجيش الذى أرسل لإنقاذ حاميتهم شر إيقاع حتى اضطرهم إلى الفرار بسفنهم ، غير أنهم مع ذلك ما كادوا يرفعون الشرع و يتأهبون للرحيل حتى باغتهم العرب وأعملوا السيف فى رقابهم ومزقوهم شر ممزق ، فأغرقوا البعض ، وقتلوا البعض الآخر ، وبذلك أذعنت الجزيرة نهائيا بالتسليم فى سنة ٣٥١ هـ ، وتمتعت بما لم تتمتع به فى عهد الأمراء الكلبيين من السعادة والاستقرار ؛ فشيدت الجوامع والمدارس والكليات ، وشجعت العلوم والفنون ، كما أخذت جامعة الطب فى بلرم تضارع مثيلاتها فى قرطبة و بغداد .

مصر

وفى سنة ٣٥٦ هـ عصفت بمصر ريح الاضطرابات فكتب بعض أشرافها إلى الخليفة المعز يدعوه إلى فتح مصر لتوطيد الأمن و إقامة العدل ، فبعث قائده المشهور جوهر (الصقلى) فى جيش كبير فدخل القائد الفاطمى الفسطاط دون مقاومة . وفى ١٥ شعبان سنة ٣٥٨ هـ قرئت الخطبة باسم المعز على منابر المسجد الجامع . وفى سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن يؤذن « بحى على خير العمل »

أحد شوارع القاهرة

وتوطدت دعائم الحكم الفاطمى كما أمر بتشييد مدينة القاهرة التى أصبحت فيما بعد عاصمة دولة المعز وأخلافه ، وأخضع الحجاز والشام وقرأ الخطبة باسم المعز فى الحرمين الشريفين ، وسحق القرامطة الذين كانوا أداة تخريب وفساد فى معركة واحدة بالقرب من الفسطاط . وكان المعز إلى ذلك الحين مقيما فى أفريقية ولكنه تلبية لطلب قائده جوهر عزم على السفر إلى مصر ، وقبل أن يقدم على ذلك قام بالطواف فى ملكه الشاسع ، وعين « بلوكين بن زيرا » والياً على أفريقية ولقبه باسم « سيف الدولة » ، ثم أقر « أحمد » على ولاية صقلية ، وبعد أن اتخذ كل التدابير لإدارة شؤون أفريقية الشمالية توجه إلى الشرق فى صفر سنة ٣٦٢ ودخل

القاهرة فى شهر رمضان ، وفى ١٥ منـه جلس على العرش الذهبى وتقبل بيعة أشراف مصر والشام والحجاز . غير أن القرامطة كان قد اشتد ساعدهم فى ذلك الحين برغم الهزيمة التى أوقعها بهم « جوهر » وقد كانت دمشق مهداً لتلك الفتن والاضطرابات ، ويقال إنهم ثاروا على نائب الخليفة الفاطمى وانتزعوا منه الشام ثم قتلوه وزحفوا على مصر ، فلقيهم جيش المعز فى موقع يعرف بعين شمس (هليو بوليس الجديدة) وأوقع بهم شر إيقاع ، ومنذ ذلك الحين لم تقم لهم أية قائمة . وبينما كانت الجيوش الفاطميـة منهمكة فى الحروب مع القرامطة نادى أحد مماليك « بنى بويه » معز الدولة واسمه « أفتكين » بنفسه سلطاناً على دمشق وما جاورها .

وفاة المعز وتولية العزيز بالله

وفى يوم الجمعة ١٥ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ توفى المعز فخلفه ولده «أبو منصور نذار » الملقب « بالعزيز بالله » ، ويصفه المؤرخون بأنه كان كريماً شجاعا حكيما شهماً ميالا للتسامح حتى مع أعدائه ، فأقر « بلوكين بن زيرى » والموظفين الآخرين الذين عينهم والده فى مناصبهم ، وألحق « بأفتكين » الذى حاول نشر سلطانه فى فلسطين وسواحل فينيقية هزيمة شديدة وأسره ، ولـكنه عفـا عنه وعامله معاملة حسنة بحيث أصبح تابعاً مخلصا للخلافة الفاطمية حتى وافته منيته .

وفى عهد « العزيز » استولى الفاطميون على الشام وقسم من الجزيرة وأخذت تقرأ الخطبة باسمه ، ليس فى الحجاز فحسب بل فى اليمن والموصل وحلب وحماه وبعض المدن الأخرى ، فامتدت حدود الدولة الفاطمية من الفرات شرقا إلى المحيط الأتلانطيقى غربا ، واشتملت كذلك على القسم الأعظم من جزيرة العرب . وكان الجيش الفاطمى منـذ نشأته حتى عهد « المعز » يتألف من المغاربة الذين قامت على كواهلهم تلك الدولة ، ويظهر أنه عظم نفوذهم ، ولما أراد العزيز أن يحول دون تسيطرهم ، أنشأ فرقة من الأتراك والديلم .

وفاة العزيز

وفى سنة ٣٨٦ هـ توفى العزيز فى مدينة بلبيس[١] فى طريقه إلى الشام ، وبموته انتهت عظمة الدولة الفاطمية . وكان قد أوصى قبل موته قاضى القضاة « محمد بن النعمان » « وأبى محمد حسن بن عمار » الملقب « بأمين الدولة » بأمر

الحاكم بأمر الله

تربية ولده وتثقيفه . وبويع المنصور بالخلافة والإمامة ولقب «بالحاكم بأمر الله» ولكنه لم يلبث أن وقع تحت نفوذ شخص طموح الفؤاد ميال إلى المؤامرات اسمه «برجوان» فاشتدت المنافسة بينه وبين «ابن عمار» ، وأخذ كل من الفريقين يتحين الفرص للإيقاع بخصمه ، فاختلت الأمور فى مصر والشام ، ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت على الحاكم[٢] عوارض الجنون ، إذ كثيراً ما أصدر الأحكام الغريبة المتناقضة ، وكان أقل إهمال يعرض المذنب إلى عقوبة القتل ؛ وبمضى الزمن استحال هذا الشذوذ إلى شغف حاد بسفك الدماء ، فقتل عدداً كبيراً من كبراء الدولة من غير ما سبب ، ولكنه فى لحظات صفائه كان جواداً سمحاً محباً للعلم ، فشيد عدة جوامع وكليات ومراصد فى مصر والشام ، وقد حكم البلاد ٢٥ سنة ، وهو على هذا النحو من اضطراب العقل ، غير أن هذه النزعات قضت عليه ؛ والمعروف أنه شغف بالوحدة والطواف بالليل ، وكان يقصد غالباً إلى جبل المقطم ليرصد النجوم ويستطلعها أو يجوب الفضاء الواسع طلباً للوحدة والتنسك ،

---

(١) وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه إلى الشام . (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١) . (المعرب)

(٢) يصفه ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ : « إن حاله كان مضطرباً فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة » . ويصفه ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ بأنه « كان جواداً سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها . أما ميللر Miller فيقول : « إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد . ولا سيما ونحن نراها فى نواح أخرى سليمة معقولة » . ويقول دوزى : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذى سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة وأحياناً غريبة شاذة » . (المعرب)

وفى ذات ليلة فى ٢٧ شوال سنة ٤١١ ذهب كعادته إلى الجبل ومعه ركابيان ، و بعد أن صرفهما عند سفح الجبل ، سار متوغلا فى شعب المقطم[١] ولكنه لم يعد قط ، فأثار اختفاؤه هلعاً وخرج الناس للبحث عنه ، ولكنهم لم يجدوا فى أعلى الجبل غير حمار الحاكم معرقباً ، وعلى بعد مسافة قصيرة منه عثروا بثيابه وفيها أثر الطعان ، غير أنهم لم يعثروا على جثته فعندئذ أيقن الناس باغتياله .

كان الحاكم المؤسس الحقيقى لمذهب جديد يدور حول شخصه ، فكان يدعى تجسم الإله فى شخصه ، وقد اعتقد أتباعه ودعاته بأنه اختفى مؤقتاً ليظهر ثانية متى أراد ، ولا يزال دروز[٢] جبل لبنان يؤمنون بهذه العقيدة .

و بعد وفاة الحاكم ولى ابنه أبو هاشم[٣] على ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، وكانت عمته « ست الملك » الوصية عليه فى السنوات الأربع الأولى من حكمه ، و بعد وفاتها استولى على مقاليد الدولة « ميزاد » و « نافر » ، وفى عهدهما فقدت الدولة الفاطمية الجزء الأكبر من الشام ، واستقل أحد أمراء العرب واسمه « صالح بن مدراس » بحلب وما جاورها . وتوفى الظاهر وعمره ٣١ سنة ، وكانت

---

(١) أخذ كثير من المؤرخين بالرواية العامة القائلة باتهام ست الملك التى كان قد هددها بالقتل لسلوكها المريب ، غير أن المقريزى يأبى أن يأخذ بتلك الرواية ويقول : « إنه فى سنة ٤١٥ هـ قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد غيرة لله وللإسلام » . (المعرب)

(٢) نسبة إلى محمد بن إسمعيل الدرزى . ويقول لنا ابن الصيد « إن الدرزى أول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم » وقد شرح دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم فقربه إليه ، واشتد نفوذه وسمى الدرزى نفسه « بسند الهادى » و « حياة المستجيبين » . وتقول دائرة المعارف الإسلامية فى مقال الدرزى ما يأتى : « وفى رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل فى سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة ، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج » . وجاء فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ : دبر الحاكم للدرزى سبيل الفرار فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس وأذاع فى الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه (وأساسه القول بالتناسخ وحلول الروح وأن الروح القدس انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله) . (المعرب)

(٣) ذكر ابن الأثير ص ١٣١ ج ٩ أن اسمه أبو الحسن على . (المعرب)

خلافته ست عشرة سنة . وولى بعده ابنه أبو «تميم معد» ولقب «بالمستنصر بالله» وعمره سبع سنين فوقعت الحكومة فى أيدى جماعة من المتآمرين ، فاضطرب حبل الأمن بسبب سوء الإدارة . وفى سنة ١٠٤٧ م انفصل الحجاز عن الخلافة الفاطمية ، كما أوقف صاحب أفريقية المسمى «بالمعز بن بادس» واللقب «بشرف الدولة» الدعاء للخليفة « المستنصر » ، وجعل الخطبة للخليفة العباسى ، غير أن ثورة « البساسيرى » وفرار « القائم » من بغداد أديا إلى الخطبة « للمستنصر » لمدة سنة فى العراق وتوابعها حتى قام « طغرلبك » وأعاد السيادة الدينية للخلافة العباسية فى أسيا الغربية ، واستطاع السلاجقة فى عهد «ألب أرسلان» — خليفة طغرلبك — طرد الجيوش الفاطمية إلى ما وراء العريش ، كما عصف فى ذلك الحين بمصر ريح قحط شديد استمر سبع سنين حتى زاد فى نكبة الأهلين ، وتوقف بذلك دولاب الإدارة وهاجر معظم الناس وتحولت البلاد إلى خراب بلقع.

ولما ضاق « المستنصر » ذرعا بالإدارة استقدم (بدرًا الجمالى) حاكم عكا وأطلق يده فى جميع الأمور ، فبرهن « بدر » على أنه منقذ البلاد الحقيقى ، فأعاد النظام فى البلاد واطمأن الناس تحت حكمه العادل ووطد سلطة الخليفة فى أنحاء مصر ، ولكنه عجز عن استرداد دمشق و إن كان قد أخضع الموانئ الفنيقية ، وتوفى سنة ١٠٩٤م ومات المستنصر بعده بشهر واحد بعد أن لقى شدائد وأهوالا حتى أصبح لا يملك غير السجادة التى يجلس عليها . وكان المستنصر قد أوصى بولاية العهد لابنه الأكبر نزار[1] فخلعه « الأفضل بن بدر الجمالى » الذى خلف أباه فى الحكم و بايع بعرش الخليفة « أخا نزار » الأصغر « أبا القاسم أحمد » الملقب « بالمستعلى بالله » ، فهرب نزار إلى حاكم الإسكندرية الذى بايعه بالخلافة

(١) يقول لنا ابن الأثير ص ٩٨ ج ١٠ : « إن الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية قصد المستنصر فى زى تاجر وخاطبه فى إقامة الدعوة له ببلاد العجم ، وقال للمستنصر : من إمامى بعدك ؟ فقال ابنى نزار ؛ وهو أكبر أولاده ، والإسماعيلية إلى يومنا هذا يقولون بإمامته » .
(المعرب)

فسار إليه الأفضل وحاصر المدينة وأسرها ، ثم أمر بقتل الحاكم ولم يعرف بعد ذلك ما حل بنزار[١] . وفى سنة ١٠٩٦ م استولى الأفضل على القدس التى كان يحكمها « بنو أرتق » التابعين لملك دمشق السلجوقى ، غير أنه لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى عصفت الريح الصليبية ثانية بالشام وفلسطين وقوضت دعائم الحكم السلجوقى والفاطمى ، وتوفى المستعلى فى صفر سنة ٤٩٥ هـ ، فبايع الأفضل — حاكم الدولة الفاطمية الفعلى — ابن الخليفة المتوفى أبا على المنصور ولقب « الآمر بأحكام الله » ، وقام الأفضل بتدبير الدولة وحكمها حكما مطلقا حتى بلغ الآمر بأحكام الله سن الرشد ، وكان عهده عهد أمن ورخاء ؛ وبالرغم من الانتصارات التى نالتها الجيوش الفاطمية على أيدى ابن الأفضل الملقب « بشرف المعالى » فقد انتزع الصليبيون من مصر الموانئ الفنيقية التى كان الجمالى قد استولى عليها.

وعند ما بلغ « الآمر » سن الرشد أساء السيرة وانغمس فى الملاذ ، ويصفه المؤرخون بأنه كان محبا للهو والطرب يميل إلى الاستبداد طموحا للفخار مهملا مهام الدولة ، ولأجل أن يتخلص من وزيره أمر بقتله ، غير أنه بعد تسع سنوات لاقى حتفه هو الآخر على أيدى بعض الفدائيين (الحشاشين[٢]) الذين دبروا اغتياله .

أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله

ولما كانت زوج « الآمر » على وشك الوضع فقد أسندت مقاليد الحكم مؤقتاً إلى أبى الميمون عبد المجيد ولقب « بالحافظ لدين الله » ، غير أنها وضعت ابنة فبويع الحافظ بالخلافة ، ولكنه لم يلبث أن حجر عليه وزيره أبو على أحمد ابن الأفضل المعروف بطموح النفس والكفاية النادرة وقوة الشكيمة ، وكان من شيعة الأئمة الاثنى عشرية ؛ فلأجل أن يصبح الحاكم المطلق فى مصر من

---

(١) يقول البعض إنه قتل سرا غير أن الفئة الإسماعيلية الشرقية تدعى أنه فر إلى آسيا وأصبح الجد الأصلى لأئمة الإسماعيلية فى قلعة آلاموت .

(٢) يسميهم ابن الأثير بالباطنيين .

جهة ولأجل أن يشبع أغراضه الطائفية من الجهة الأخرى أمر بأن يستبدل اسم الخليفة الفاطمى على السكة باسم الإمام الطفل الذى كان قد اختفى فى أحد سراديب سامراء وألقيت الخطبة باسمه أيضاً ؛ غير أن الحافظ وهو فى سجنه أغرى بالوزير من قتله فى ١٥ محرم سنة ٥٢٦ هـ فى البستان الكبير خارج العاصمة . وعلى أثر اغتيال « أبى على أحمد » استقامت أمور « الحافظ » ، غير أن البلاد لم تجن ثمرة من استرداد سلطته ، إذ كان سيئ الخلق خاضعاً لوزيره أمير الجيوش « يانس الحفيظى » الذى كان عظيم الهيبة بعيد الغور كثير الشر ؛ ويقال إن الحافظ احتال على قتله فى ذى الحجة سنة ٥٢٦ هـ واستوزر مكانه أرمنيا اسمه « بهرام » . وأدى التنافس بين « بهرام » و « رضوان » أحد رؤساء الدولة إلى نشوب الفتن والمنازعات ، فأمر الحافظ بإلقاء القبض على بهرام وحبسه ثم استوزر رضوان الذى لم يلبث أن خرج عليه ، غير أنه قتل فى المعركة التى دارت بينه وبين جنود الخليفة . وقد أدى سلوك هؤلاء القواد إلى أن يستولى الخليفة بنفسه على مقاليد الحكم ويصرف أمورها كيف شاء دون أن يستوزر أحداً حتى توفى سنة ١١٤٩ م ، وفى أواخر عهده لم يعد للخلافة حول ولا طول ، وطفق زعماء العاصمة يتنازعون على السلطة . ويقول ابن الأثير : « إنه كان ضعيفاً منقاداً لبطانته ووزرائه » . ولما توفى ولى مكانه أبو المنصور إسمعيل ولقب بالظافر بأمر الله ، وكان مستسلماً للهو ، منغمساً فى الملذات يقضى أوقاته فى مصاحبة الندماء ، تاركاً حبل الأمور على غاربها لوزيره أبى الحسن على الملقب بالملك العادل ، ولكن ربيبه (ابن زوجه) قتله سنة ١١٥٣ م وولى الوزارة بعده . ويقول ابن الأثير فى الخلافة المصرية : « كانت الوزارة فى مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين ، وقلّ أن وليها أحد بعد الأفضل إلا محرب وقتل وما شاكل ذلك » . ولم تعد سلطة الحكم تمتد خارج قصر الخليفة ، كما أدت كثرة المنافسات وشدة الخصام وانتشار الفوضى فى القاهرة التى أصبحت ميداناً فسيحاً

لأروع السفك إلى انحلال الدولة وانقراضها . وكان المصريون إلى ذلك الحين يملكون « عسقلان » غير أن الصليبيين لما رأوا ضعف المصريين وانقسامهم على أثر قتل « الملك العادل » اغتنموا هذه الفرصة وفتحوها عنوة . وفى محرم سنة ٥٤٩ هـ اغتال نصر بن عباس « الخليفة الظافر » ؛ ولأجل أن يرفع الوزير الخائن الشبهة عن نفسه وعن ولده « نصر » قتل أخوى الظافر وهما « جبريل » و « يوسف » بتهمة اشتراكهما فى اغتيال الخليفة ، ثم أجلس القاسم عيسى بن الظافر ولقب « بالفائز بنصر الله » محاولا بذلك أن يحكم البلاد حكما مطلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلا إذ علمت أخوات الظافر بخبر الجريمة ، فأرسلن إلى « طلائع بن رزيك » [1] حاكم مصر العليا شعورهن طى كتاب يستغثن به ، فزحف طلائع على القاهرة فى قوة كبيرة من الجند وعرب البادية بأعلام وثياب سود حزناً على الظافر ، ولما هجر الجيش الوزير العباس وابنه ناصر فر الاثنان بثروتهما إلى الشام وكان يصحبهما الأمير أسامة وعدد كبير من الحاشية ، وكانت أخوات الظافر فى ذلك الحين قد أرسلن إلى الصليبيين فى عسقلان يعرضن عليهم مالا كثيراً مقابل القبض على العباس وابنه ، فطمع الفرنج بالجائزة وخرجوا من القلعة للقبض عليهما ، فدارت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها العباس وكثير من أتباعه وأسر « الناصر » ، وعندئذ وضعوه فى قفص من حديد وأرسلوه مخفوراً إلى القاهرة حيث عذب ثم قتل وصلب ، ولم يلبث أن استقر « طلائع » فى دست الحكم وخلع عليه خلع الوزارة كما لقب « بالملك الصالح » وعين وصيا على الخليفة الطفل .

وفاة الفائز

توفى الفائز قبل بلوغه سن الرشد ، غير أن الوزير بدلا من أن يولى أحد أفراد الأسرة المالكة الكبيرى السن — وهم كثيرون وقتئذ — اختار محمد عبد الله بن يوسف أخا الظافر وبايعه بالخلافة ولقب « بالعاضد لدين الله » ، وكان

(١) كان من أصل أرمنى .

صغير السن فقبض الصالح على زمام الحكم بيد من حديد واستبد بالأمر والنهى ولكن لم يمض سوى قليل حتى قتل[1] بدسائس القصر حسب قول ابن خلدون ولكن فى رواية المقريزى « أن أحد الباطنية اغتاله فى سنة ١١٦١م » . فخلفه ابنه « العادل رزيك » ، ولم يمض طويل وقت حتى تغلب عليه « شاور » وقتله ، إلا أن « شاور » لم يمكث طويلا فى الوزارة حتى نازعه فيها « ضرغام » من بنى سعد « صاحب الباب » ، وهى وظيفة تشبه وظيفة « الحاجب » فى البلاط العباسى ؛ ففر شاور إلى نور الدين محمود سلطان دمشق واستنجد به ، فعاد على رأس جيش بعث به « ابن الزنكى » فقتل ضرغام فى الموقعة التى دارت بينه و بين جنود الشام و بعدئذ نصب شاور وزيراً . وتوفى العاضد سنة ١١٧١ م وانقرضت بوفاته الدولة التى أسسها عبيد الله المهدى .

تأسيس القاهرة

وضع جوهر أساس القاهرة فى ٢٤ جمادى الثانية سنة ٣٥٩ هـ (١٤ آيار سنة ٩٦٩ م) ، وقد تم بناء السور المحيط بها قبل وصول الخليفة المعز ، وشيدت العمائر الفخمة على كلا الجانبين فأكسبت مدينة القاهرة رونقا وفخامة وأنشئت فيها الطرق والشوارع التى كانت تسمى قبلا بالحارات ، وهى تؤدى إلى الضواحى والأخطاط . أما قصر الخليفة و يقع فى الجانب الشرقى من القاهرة فكان يتألف من اثنى عشر بهوا ، وسمى بالقصر الكبير الشرقى أو القصر المعزى ، وكان له عشرة أبواب يحرسه ١٥٠٠ جندى رجالة ومثلهم من الفرسان ، وكان يبلغ عدد الخدم والحشم اثنى عشر ألفا ، وكان ثمة نفق تحت سطح الأرض يؤدى إلى قصر فخم على الضفة الأخرى من النهر و يسمى بالقصر الغربى أو قصر البحر ، كما كان للخليفة عدة قصور فخمة ودور فى المدينة وضواحيها مزينة بأحسن زينة . وكانت قصور الأمراء لا تقل عنها فخامة و بهاء ، وكانت الحدائق الغناء تحيط بمنازل الأغنياء

(١) ثم إن الصالح روج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله . (المعرب)

والأثرياء ، ويلوح أن جمال هذه الحدائق وكثرتها وفخامة المنازل أثارت إعجاب السياح الغربيين الذين كانوا يؤمون القاهرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (١) ، إذ كانت الجوامع والكليات والمستشفيات والعمارات الهائلة تزيد فى جمال المدينة وفخامتها ؛ كذلك كانت الجوامع الأربع الكبرى بالغة حد العظمة والجمال ؛ وكان من أهم عمائر القاهرة فى عهد الفاطميين « الحسينية » وهو بناء فسيح الأرجاء تقام فيه ذكرى مقتل « الحسين » فى موقعة كربلاء : كما شيدت الحمامات العامة الجميلة فى كافة أنحاء المدينة ، وخصص بعضها للنساء والبعض الآخر للرجال ؛ وكانت أسواقها تشتمل على عشرين ألف حانوت ملآنة كلها بشتى المنتوجات . كذلك كان يحيط بالمدينة سور متين عليه عدة أبواب (٢) . ومن أهم الألعاب التى كان الأشراف والأعيان يتلهون بها صيد الغزال على أنواعه كما كان الفلاحون يتلهون بصيد الأسماك . وكانت الإدارة تسير على نمط الإدارة العباسية (٣) ، ولم يكن ثمة فرق بين النظامين غير منصب قائد الجيوش العام الذى كان يجمع إلى قيادة الجيش منصب الوزارة . ويقال إن اضمحلال الدولة الفاطمية بدأ منذ عصر المستنصر ، إذ حلت المؤامرات محل السياسة ، وانحطت الأخلاق انحطاطا عظيما حتى أصبحت المؤامرات كافية لرفع المرء إلى أعلى مناصب الدولة ، كما استبدل طلاب العلم والعلماء بالمخبرين والجواسيس ، وحل التملق

(١) كتب جهان تينود الدكتور فى اللاهوت وأستاذ فى الفنون الذى صحب أندرى لروا رسول الملك لويس الثانى عشر إلى السلطان الغورى ، وصفاً شيقاً عن القاهرة وحدائقها وقصورها .

(٢) ومن أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة وباب زويلة وباب الخليج .

(٣) كان الموظفون قسمين : رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فمن جملتهم الوزير عادة ، والحاجب وهو يلى الوزير فى المرتبة وقائد الجيوش العام ، وحامل مظلة الخليفة ، وحامل سيفه ، وحامل رمحه ، وصاحبا شرطة القاهرة والفسطاط .

أما رجال القلم فمن جملتهم الوزير أحياناً وقاضى القضاة ، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء فى جامع عمرو يومى السبت والثلاثاء ، وداعى الدعاة ، والمحتسب وخازن بيت المال ، ويتبع هؤلاء صغار الموظفين فى مصالح الحكومة غير العسكرية . (المعرب)

والرياء محل الولاء واستقلال الشخصية ، وتذرع الحكام للبقاء فى كراسى الحكم ببث بذور الشقاق والخلاف بين أبناء الشعب .

دار الحكمة

كان الفاطميون فى أول عهدهم كالبطالسة الأولين يشجعون العلم ويكرمون العلماء ؛ فشيدوا الكليات والمكاتب العامة ودار الحكمة ، وحملوا إليها مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون والآلات الرياضية لتكون رهن البحث والمراجعة ، وعينوا لها أشهر الأساتذة ، وكان التعليم فيها حراً على نفقة الدولة ، كما كان الطلاب يمنحون جميع الأدوات الكتابية مجانا . وكان الخلفاء يعقدون المناظرات فى شتى فروع العلم كالمنطق والرياضة والفقه والطب ، وكان الأساتذة يتشحون بلباس خاص عرف بالخلعة[1] أو العباءة الجامعية ، وأرصدت للإنفاق على تلك المؤسسات وعلى أساتذتها وطلابها وموظفيها أملاك بلغ إيرادها السنوى ٢٥٧ ألف دوكان (٤٣ مليون درهم) ، ودعى الأساتذة من آسيا والأندلس لإلقاء المحاضرات فى دار الحكمة فازدادت بهم روعة وبهاء .

لا يمكن أن نوفى تاريخ الفاطميين حقه من البحث دون أن نتحدث قليلا عن الدعاية المذهبية التى وضعوا خططها واتخذوا نشر العلم بين الكافة سبيلا لغزو الأذهان تحقيقاً لغايتهم السياسية ، فألحقوا بدار الحكمة « المحفل الأكبر » الذى كان يتلقى فيه المدعوون سر المذهب الإسماعيلى ؛ وكان المحفل يعقد اجتماعاته يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع برئاسة « داعى الدعاة » ، ويحضره النساء[2] والرجال على السواء مرتدين الملابس البيضاء ، وكانت تسمى هذه المجامع بمجالس الحكمة ، وكان داعى الدعاة[3] يلقى هذه الدروس الخاصة على الراغبين بعد

(١) لاتزال الجامعات الإنكليزية تستعمله كلباس الجامعة الرسمى .

(٢) يقول المقريزى ج٢ وصبح الأعشى ج٣ : « إنه كانت تعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر وهو المسمى « بالمحول » وكان من أعظم الأبنية وأرحبها » .
(المعرب)

(٣) جاء فى صبح الأعشى ج ١٠ ص٤٣٤ واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة نوردها فيما يلى . =

مراجعة الخليفة وموافقته ؛ فإذا ما انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعى فيمسح على رؤسهم بعلامة الخليفة . وقد انتهت إلينا بعض تفاصيل هذا المحفل على يد المقريزى فنراها تجرى على نسق الجمعيات السرية فى مراتب متدرجة ، ولقد أسست المحافل فى العالم المسيحى على نمطه .

أما دار الحكمة الفاطمية كأداة سياسية فقد فقدت نفوذها بانقراض الأسرة الفاطمية التى كانت تدين لها بالوجود ، ولكنها طفقت مع ذلك تسطع بنورها على المدن المصرية حتى أصبحت أثراً بعد عين فى عصر المماليك الاستبدادى ؛ أما روحها السرية فقد قاومت صروف الدهر ، وأخذ تأثيرها يظهر فى ممالك وطوائف تختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث المواهب والاستعداد .

انتهى

= « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . ، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات ، إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ، ودل على اتصال المحتل بالمنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها والبواطن أنفس والظواهر أرواحها . . . » . (المعرب)